عن روسيـــــا
وعن نهاية «نهاية» التاريخ

سلسلة آراء

بـــدّي المرابطـــي

عن روسيـــــا
وعن نهاية «نهاية» التاريخ

من الغرب إلى تركيا ومن العرب إلى الصين:
هوامش على التموقعات الروسية لسنة 2015

دار الحكمة
بيـروت - بـاريس

الكتاب:
عن روسيا وعن نهاية «نهاية» التاريخ

المؤلف :
بدّي المرابطي

الناشر: دار الحكمة

الطبعة الأولى – 2022

الترقيم الدولي للكتاب :
978-2-37711-199-2

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

«الحرب جدٌّ غَير عادلة وجِدٌّ
قبيحة لَدرجة أن كلّ من
يخوضها يُضْطر إلى أن يحاول
خنقَ صوت ضميره».

ليون تولستوي

الفهرس

مدخل- زينوفْييف: نهاية الشيوعية أو نهاية الديموقراطية والغرب؟ 9

الربيع : ليس هناك أحد في روسيا يريد مَتارِيس الثورة.....21

روسيا وتركيا : راهنية استنفار الذاكرة 37

أوروآسيوية روسيا: من الغرب إلى تركيا والعكس 49

ما بعد الأحادية القطبية: من روسيا إلى الصين 63

مدخل

زينوفْييف: نهاية الشيوعية أو نهاية الديموقراطية والغرب؟[1]

1 نُشر في رأي اليوم، 4 يوليو 2015 (وقد نُشرتْ منه صيغة أولى في صحيفة الخليج العربي بتاريخ 16 مايو 2006).

– 1 –

لـم يغفـر كثيرون مـن أنصـار النهاية الفوكوياميَّـة لِألِكسَـندر زينوفْييـف – الكاتب والمنطِقي الروسـي الذي رحل سـنة 2006 – مواقفَه بعد نهاية الحرب البـاردة التي تختصرُهـا عبارتُه الذائعة: "الليبراليون أشد خبثاً من الستالينيين. أعرفهـم فهـم يتشـابهون كمـا تتشـابه الفَسـافِس في ثنايا خشـب الإِيسْـبَا"[2].

---

2 Alexander Zinoviev: "The End of Communism in Russia Meant the End of Democracy in the West" Cf. http://

ولذلك هبـط في العِقديـن الأخيرين الاحتفاءُ بأعماله في كثير من الأوسـاط التـي كانت تَعتبِـر كتبَـه فتوحاتٍ كوْنيةً. فقد كرّسـتْه كما هو معروف دورُ النشـر العالمية بعد صدور «المرتفعات الفاغرة» سـنة 1976.

صـارَ زينوفْييـف منـذ أواخـر الحقبة البْرِيجْنيفيَّـة وبمقتضـى منطـق الحـرب

.zinoviev.info/wps/archives/1309

وأيضـا: AMALRIC Jacques et Ange-Dominique BOUZET, "Dernier exil pour Alexandre Zinoviev", Libération, .Samedi 13 mai, 2006

الباردة أحد النماذج البارزة للمثقف الروسي المارق من وعلى الاتحاد السوفيتي والذي تُباهي به الدعايةُ الليبرالية. فقد وقف أَلِكسَندَر زينوفْييف ضد سْتالين -بل حاول اغتياله- كما روى ذلك لاحقاً.

- 2 -

بعد صدور «المرتفعات الفاغرة» بعدة لغات، بدأتْ مطاردتُه وبدأ تشرّده فاستقر في ألمانيا الغربية ليصبحَ أستاذاً

للرياضيات وفلسفة العلوم بجامعة مْيُونِيخ. وأخذتْ كتبُه تتالى ونقمتُه تزداد على ما يسمّيه «البيروقراطية التي تلدها الأيديولوجيا السوفِيتِية» فعرفتْ أعمالُه رواجاً كونياً.

ولكنه بعد انهيار الحِلف الشرقي فاجأ مادِحيهِ ومُقْرِظيه الليبراليين بكِتابيْه «الغَرْبَوية» و«القطيعة الكبرى». الأطروحة الأساسية لـ«القطيعة الكبرى» هي أن انتصار «الغَرب» في الحرب الباردة وتتويج الهيمنة العالمية للولايات المتحدة كان أيضاً تتويجاً لنهاية أوروبا

الغربيـة كفاعـل فـي التاريـخ. فالأخيرة «لـم تعـد صانعـة للتاريـخ بـل أضحتْ مستسـلمة لـه». حضارة أوروبـا الغربية عاشتْ في نظره ذروتَها مع تكوُّن دولها القومية، ثم جاء القرن العشرين كإعلان أَوَّلِـي عـن انهيارهـا. ولكـن صاحـب «المرتفعـات الفارغـة» كان يـرى أيضاً أن انهيـار أوروبـا يحمـل معـه تزامنيـاً انهيـار الديمقراطيـة.

فانتصار الولايات المتحدة في الحرب البـاردة بالقضاء علـى التعدديـة القُطْبِية قـد قضـى بنفـس المسـتوى على شـرط

ضروري من شروط الديمقراطية. وانتهاء الحرب الباردة قد دشّن في نظره مرحلةً ليست فقط ما بعد شيوعية ولكنها أيضاً ما بعد ديمقراطية.

– 3 –

هل مثلتْ «القطيعة الكبرى» ارتداداً عن ماضي صاحبه كما توحي به العبارة الصحافية «انشقَّ عن انشقاقه»؟

حـاول زينوفْييـف الإجابـة عـن هذا السـؤال مـن خـلال مقـال نُشـر عشـية عودتـه إلى روسـيا سـنة 1999 وحمل عنوان «لماذا أعود إلى روسيا؟» وفيه: «لكـي أجيـب عن هذا السـؤال عليّ أن أجيب عن آخر: لماذا وجدتُ نفسي منذ خمس وعشـرين سنة خارج روسيا، في الغرب؟»[3]. ويجيب مطولاً عن السـؤال الأخير بمـا مقتضـاه أن معارضته كانت

---

3 AMALRIC Jacques et Ange-Dominique BOUZET, "Dernier exil pour Alexandre Zinoviev", Libération, Samedi 13 mai, 2006.

بسبب العداء الذي واجهتْه أعمالُه العلمية والأدبية التي يتضمن جلُّها «وصفاً دقيقاً للمجتمع السوفيتي».

ولكن بداية التسعينيات عرفتْ انهيارَ الاتحاد السوفيتي وتدمير النظام الاجتماعي السوفيتي في البلدان المكوِّنة له. ولم ينتج عن ذلك في روسيا الازدهارُ الذي وعدتْ به الدعاية الغربية. ولكن على العكس من ذلك عرف المجتمعُ تقهقراً متسارعاً في كلّ الميادين السياسية والاقتصادية والإيديولوجية والأخلاقية والاجتماعية. وهنا تبدأ تعقيدات جديدة

تتكشـف لزينوفْييـف. فـ«قـول الحقيقة» في وصف المجتمع السـوفيتي هو الذي جعلـه يُطـرَد مـن بلـده. ومـا يكتبُـه عن روسيا المابعد سوفْيِتيّة يَجرُّ عليه مقاطعةَ أعماله العلمية والأدبية ويجعل إصدارَها ونشـرها مسـتحيلاً عمليـاً.

– 4 –

خـلْفَ هـذا الموقف البالغ التشـاؤم نكتشـف بيـن العبارات نوعاً مـن تأنيب الضميـر يتجلّـى مـن حيـن لآخـر حيـن

يتحدث زينوفْييف عن أنه أخذ في السنوات الأخيرة للحرب الباردة يكتشف المخطط الغربي لإلغاء روسيا وتحويلها إلى «شعوب بدائية غير قادرة على حكم نفسها».

فالتعددية القطبية مثلتْ بداهةً على الصعيد الدولي مصدراً للتوازن السياسي على الصعيد الجيوستراتيجي كما على الصعيد الداخلي لكلّ دولة. فهي التي كانت خلف وجود توازن مثمر بالنسبة للدول الليبرالية. فظلّ التنافس مثلاً مع الحلف الشرقي يقوّي الهيئات

النقابية داخل الدول الغربية، ويُرغم الأخيرة على تطوير الحقوق الاجتماعية والعمالية. وهو ما يجعل زينوفْييف يؤكد كَكثيرين غيره على أن تراجع الطابع الاجتماعي للديمقراطيات الغربية في العقدين الأخيرين هو تراجع للديمقراطية كَكل. كما يؤكد على وجود تناقض جذري بين الاحتفاظ بمكتسبات الليبرالية السياسية وحرياتها وبين انتصار الليبرالية الاقتصادية كما يُكرّسُه مثلاً تَغوّل التدوير العولمي لرأس المال.

– 5 –

هل انتهـتْ نهايةُ التاريخِ الفُوكوياميَّة وانتهى معها الابتهاج بـ«انتصار الليبرالية»؟ لقـد تحققّتْ على الأقل عناصر دالة من التوقّعات الشْبِنغْلِرية حول تراجُع مكانة أوروبـا فـي العالم. وهـو ربّما مـا يعنيه تغيرُ معنى مفردة «الغَرب» الذي لم يعد يحيـل مـن الناحية الجيوسـتراتيجية إلى أوروبـا الغربيـة.

بـدأ على الأقـل تاريخ آخر أو تاريخٌ مختلفٌ باستعمال عباراتِ حركة العولمة

البديلة. وهو بالتأكيد تاريخ ستحاول فيه روسيا أن تستعيد مكانةً ما إلى جانب القوى العالمية الجديدة كالصين والهند التي أخذتْ تتحرك بحذر ولكنها تتحرك. فـ«القطيعة الكبرى» ليستْ إلا واحدة من قطائع أخرى. ومخيلة التاريخ تظل دائماً أكثر خصوبة ممن يتوهَّمون أنهم صُنَّاعُه.

الربيع : ليس هناك أحد في روسيا يريد مَتارِيس الثورة[4]

4 نُشر في رأي اليوم، 7 نوفمبر 2015.

– 1 –

يَدّعي الكاتب الروسي ميخائيل شيشْكين بلغة ساخرة أن مشكلة روسيا هي أنها دائماً تعمل للوصول إلى هدف محدَّد فتحصد النتيجة المعاكسة. وأنه لذلك حاول قديماً بطْرس الأكبر إضعاف أوروبا في مواجهة روسيا فكانت النتيجة أنه أضعف روسيا في مواجهة أوروبا. ولذلك أيضاً حاول غورْباتشوف إنقاذ الاتحاد السوفيتي فكانت النتيجة أن الاتحاد اختفى من

الوجـود[5]. ويضيـف شيشْـكين أيضاً في نفـس السـياق السـاخر أن هنالـك قصةً روسـية حزينة للثـورة موازيةً أو محايِثةً لما يـراه قصتَها الحزينةَ مع الديمقراطية وبسـببها «ليـس هنـاك أحـد في روسـيا يريـد مَتاريـس الثـورة»[6].

لا يبدو أيضاً أن روسـيا بوتينْ أحبَّتْ متاريـس الثورة فـي العالـم العربي منذ

---

5 SHISHKIN Mikhail, « Poets and Czars, from Pushkin to Putin : the sad tale of democracy in Russia », *the New Republic*, 1 July, 2013.

6 *Ibid*.

سقوط بن علي سنة 2011. طبعاً ليس ذلك لأن للثورة والديمقراطية أيضاً قصة حزينة في العالم العربي. ولكنْ أساساً لأن لروسيا قصة غير سارَّة مع سقوط أو تَغيّر الأنظمة في المنطقة.

– 2 –

يُلخِّص عرضٌ أَعدَّهُ سنة 2013 فرعُ مركز كارنيغي في موسكو تحت عنوان

«روسيا والربيع العربي»[7] تاريخَ روسيا مع العالم العربي في ثلاث مراحل:

ـ مرحلة روسيا القيصرية أو الامبراطورية الروسية التي لم تكن مَعْنية به. كانت تنظر إليه كجزءٍ طَرَفيٍّ في الامبراطورية العثمانية المنافسة لها (مع استثناءات قليلة مثل مصالح الكنيسة الأرثوذوكسية في بعض بلدان المشرق إلخ.).

---

7 MALASHENKO Alexey, *RUSSIA AND THE ARAB SPRING*, Carnegie Moscow Center, OCTOBER 2013.

ـ أمـا المرحلـة الثانية فهـي المرحلة السوفيتية خصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية حين أصبح العالم العربي والعالم الثالـث عموماً المجالَ الرئيـس لتنافس الاتحاد السوفيتي وحلفائه مع الولايات المتحدة وحلفائها. ولكن هذا الحضور أخـذ يتراجع مـع بدايـة تقهقـر الاتحاد السـوفيتي فـي السـبعينيات.

ـ أمـا روسـيا المابعـد سـوفيتية فقـد كانـت غارقـة فـي مشـاكلها الداخليـة ولـم يَظهر من جديـدٍ الاهتمـامُ بالعالم

العربي إلا مع وصول بُوتِين الى السلطة سنة 1999.

يرى التقرير أن سياسة روسيا البُوتينية بهذا الخصوص هي مزيجٌ من الرغبة في استعادة تركة الاتحاد السوفيتي ومن اعتبارات تخصّ المصالح الحيوية الروسية في السياق المابعد سوفيتي. هكذا يحاول التقرير تفسير حرص الكْريمْلين على الاحتفاظ بقاعدة طرطوس في سوريا وتنشيطها كآخر بقايا الحضور العسكري السوفيتي في المنطقة.

– 3 –

تُعـدِّد ورقـةٌ نشـرَتْها فـي شـهر مايـو عـام 2015 مؤسسـةُ العمـل مـن أجـل العلاقـات الدوليـة والحـوار الخارجي (بروكسـيل/ مدريد، 2015) مصالـحَ روسـيا فـي البلـدان العربيـة وتوجزُهـا فـي أربـع:

ـ إحداهـا تفـادي مـا تـراه روسـيا محاولـة أوروبيـة أمريكيـة لحرمانهـا مـن حلفائهـا.

ـ أما الثانية فترتبط بالتخوف من وصول حركات طائفية متطرفة إلى السلطة في البلدان العربية لا ينتج عن وصولها فقط تقويض نفوذ روسيا في المنطقة ولكن يكون لها تأثير في المناطق الإسلامية حول روسيا وداخلها.

ـ أما الثالثة فتتعلق باعتماد روسيا إلى حدّ كبير على مداخيلها من البترول والغاز، وهو بالتالي ما يجعلها تخاف من كل ما يمكن أن يؤثر في أسعارهما. وهي تنظر وفقاً لذلك بحذر إلى الدول العربية المصدِّرة للطاقة ودورها بشكل

خاص في الهزات التي يعرفها والتي يمكن أن يعرفها هذا السوق.

ـ أما المصلحة الجيوستراتيجية الرابعة فتتعلَّق بطموح الكْرِمْلين إلى تصدير منتوجاته العسكرية إلى الدول العربية. هذا بالرغم من أن حجم التبادلات التجارية بين الدول العربية وروسيا ظلَّ على الإجمال ضعيفاً.

– 4 –

يَعتبر تقرير معهد كارنيغي أن بُوتين حاول في بداية حكمه أن يُقدم روسيا كَكيان مختلف في آن عن الغرب وعن العالم الإسلامي وقادرٍ بالتالي أن يلعب دورَ الوسيط بينهما (منذ 2005 أصبحتْ روسيا التي تضمّ خمسا وعشرين مليون مسلم[8] عضواً مراقباً في منظمة المؤتمر الإسلامي). ولكن التقرير

8 https://www.aljazeera.com/features/2018/3/7/islam-in-russia

يعتبـر أن أغلـب دول العالم الإسـلامي لم تُرحّب بهذا الدور الروسـي المقترَح وأنّ الـدول الغربيـة ليسـت لهـا حاجـة إلى وسـاطة روسية في علاقتها مع دول العالـم الإسـلامي.

وكانت روسيا قد شعرتْ بشكل خاص بالخيبة حين عجزتْ كلُّ محاولاتها عن خلـق تعبئـة كافيـة دوليـاً وإقليميـاً لمنع احتـلال العـراق، حليفهـا - وإنْ تعلّـق الأمر بتحالف محدود - الموروث عن الحقبـة السـوفيتية.

أحسّتْ روسيا حينها حسب التقرير بمرارة كونها لم تستعدْ ما يكفي من القدرات لتكوين قوة موازنة نسبياً للولايات المتحدة خصوصاً في مناطق النفوذ السوفيتية السابقة. فتمّ إذاً تدميرُ أحد آخر حلفائها في المنطقة دون أن تستطيع فعلَ شيء يُذكر. ولم يبق لها بعده من الحلفاء الموروثين عن الحقبة السوفيتية سوى الأسد والقذافي.

ويضيف التقرير أن بوتين شعر بالفشل بشكل خاص في علاقته مع الدول العربية خلال لقاءات القمة بين 2005 و2007

وأخفق في التوصل إلى اتفاقيات بشأن عدد من العقود الاقتصادية. كما رفضتْ عدد من الدول العربية مقترحاته بشأن خلق منظومة أمنية إقليمية.

– 5 –

بعد ستة أشهر من انطلاق أحداث «الربيع العربي» لاحظتْ ورقةٌ نشرها مركز الدراسات الأمنية في زوريخ

(يوليو 2011)[9] أن وصول الثورات الشعبية إلى ليبيا قد جعل روسيا تُظهر شيئاً فشيئاً تخوفاتِها التي كانت نسبياً مُضمَرة مع سقوط بن علي ومبارك. فبقدر ما فاجأت الثورات العربية الدول الغربية بقدر ما فاجأت روسيا.

ولم يختلف موقفها المعلَن في الأشهر الأولى مما حدث في تونس

---

9 KATZ, Mark N., and Va FAIRFAX, "Russia and the Arab Spring", *RUSSIAN ANALYTICAL DIGEST*, No. 98, 6 July, 2011.

ومصـر عن مواقف الـدول الغربية. فقد أصيبـتْ مـن ناحيـةٍ بارتباك شـديد أمام هذه الهزات الجيوستراتيجية المفاجئة. ومـن ناحيـة ثانيـة أرادت مثـل الـدول الغربيـة مجاملـةَ اندفـاع الـرأي العـام وبالتالـي إظهـارَ مواقـف إيجابيـة تجاه التغيـرات التـي عرفتهـا مصـر وتونس. ومـن ناحية ثالثـة عملتْ على أنْ لا تتمّ هـذه التغييـرات علـى حسـاب مـا تـراه مصالحَهـا الحيويـة.

ولكنَّ المعلِّقين الروس شبه الرسميين لم يكونوا حينها يتسـترون على تخوفهم

من أن تكون الثورات العربية تمّتْ على طريقة ثورات أوروبا الشرقية. فالأخيرة في التصور الرسمي الروسي لم تكن إلا انعكاساً ليد خفية غربية.

وفي جميع الأحوال كانت لروسيا في بداية 2011 ثلاث تخوفات رئيسة:

ـ الأول أن يقود الربيعُ العربي إلى وصول تيارات «ليبرالية» موالية للغرب إلى السلطة. وهو ما يعني بالنسبة لروسيا إمكانية أن يكون الربيع العربي تمهيداً غربياً لدعم عدد من الثورات في العالم بما في ذلك منطقة نفوذ

روسيا أو حتى داخل الدولة الروسية وهو ما يعني من منظور موسكو العودةَ من جديد إلى مربع المطبّات التي تلتْ نهاية الحرب الباردة.

ـ أما السيناريو الثاني فهو أن يسمح الربيع العربي بوصول ما تراه روسيا حركات دينية طائفية متطرفة سيكون لها تأثير إقليمي ودولي خطير.

ـ أما السيناريو الثالث والذي عبّرتْ عنه روسيا حينها بصراحة أكبر فهو احتمال أن تدْخل المنطقةُ لسنوات دوامةَ عنف طائفي تخشى روسيا تمدُّدَه إلى

مناطقها الإسلامية (حولها وداخلها، خصوصاً في القوقاز الشمالي ومنطقة الفُولْغا).

ورغم أن روسيا قد حاولتْ الوقوفَ في وجه محاولات التدخل الدولي في ليبيا فإنها اضطرتْ منذ البداية إلى التراجع نسبياً. وحتى حين أرادت التوسطَ لإيجاد مخرج سياسي في ليبيا في يونيو 2012 فقد اكتشفتْ أن الوقت قد أصبح متأخراً جداً. وفضلاً عن الخسارة المالية (ضياع الديون وإلغاء عقود «غازبْرُوم» و«تاتْنِفت»)

فقد أحسّتْ روسيا أن الدول الغربية قد بالغتْ في إذلالها بـ«طردها» عملياً من دولة حليفة، وأنها اكتسبتْ عداوات في ليبيا سيكون من العسير تجاوزها.

يجد هنا طبعاً إصرارُها بكل الوسائل على تفادي تكرار السيناريو الليبي في سوريا بعضَ أسبابه. ولكن تقرير كارنيغي يضيف عنصراً آخر يستحقّ أن نتأمّله. يتعلق الأمر بمشروعيْ خطوط الأنابيب (قطر/ سوريا/ تركيا من جهة وإيران/ العراق/ سوريا من جهة ثانية) اللَّذيْن أثارا عدداً من التأويلات. حيث

يضيف التقرير العبارة اللافتة: «طالما بقيت سوريا غير مستقرة فلا قطر ولا إيران تستطيعان متابعة ما تطمحان إليه من تشييد خطوط أنابيب الغاز عبر سورية. وهو ما يمنح روسيا وقتا إضافيا لتطوير مشاريع غازها»[10]. وهي عبارة قد لا تَصْدق بشأنها بالضرورة إشارات شيشْكين الساخرة.

---

10 MALASHENKO Alexey, *RUSSIA AND THE ARAB SPRING*, Carnegie Moscow Center, OCTOBER 2013, p. 12.

روسيا وتركيا: راهنية استنفار الذاكرة[11]

11 نُشر في رأي اليوم، 28 نوفمبر، 2015.

– 1 –

يمكن أن يُقال بمعنىً ما عن الإمبراطوريتين العثمانية والروسية إنهما وريثتا الإمبراطورية البيزنطية.

وبينما تمثِّلُ الإمبراطورية العثمانية الوريث الترابي والديموغرافي فإنها تمثل وريث القطيعة، وريث التحول الحَدّي الذي يرمز إليه استبدال اسم القُسْطَنْطينية بإسطنبول.

بينما تُمثل الإمبراطورية الروسية وريثَ الاستمرار والشرعية في نظر

أوساطها الأرثوذوكسية (على الأقل قبل نقْلِ القيصر بُطْرُس الأول عاصمتَه من موسكو إلى سان بيترسْبورْغ). وهو ما تختصره تسمية موسْكو بِروما الثالثة (والقسطنطينية روما الثانية).

فسردية «انتقال» الإرث البيزنطي الأرثوذوكسي من القسطنطينية إلى موسكو (عبر كْييف وفْلاديمير إلخ) انتشرتْ على ما يبدو خصوصاً في أوج الصراع الروسي العثماني عبر إعادة استثمار عددٍ من العناصر التاريخية التي اعتُبرتْ مؤسسةً (كزواج إِيفَان

الثالث في الكْريمْلين بالأميرة صوفيا باليولوغُس بنت أخ آخر إمبراطور بيزنطي تسعَ عشرة سنة بعد الفتح العثماني للقسطنطينية). وهي إعادة استثمار قد لا تكون لاحقاً أجنبية تماماً عن السردية الموازية المتعلقة بانتقال الخلافة إلى إسطنبول.

– 2 –

بعد أكثر من أربعة قرون من الحروب، اصطداماً واقتراباً، انهارت امبراطوريتا

روسيا القيصرية وتركيا العثمانية في الحرب العالمية الأولى ونشأتْ من بين ما نشأ من حطامهما روسيا البُلْشِفيَّة وتركيا الكَماليّة.

ثمّ ورثتْ البُلْشِفيَّةُ بشكل مباشر أو غير مباشر أغلب المناطق التي كانت مسرحَ الصراعات التاريخية بين الامبراطوريتيْن بما فيها تلك التي يُنظر إليها في تركيا باعتبارها مناطق الجذور في آسيا الوسطى والقوقاز. وكادت روسيا أن تحصل عبر الاتحاد السوفيتي وحلفائه على ما فشلتْ في

الحصـول عليـه عبر كل الحـروب التي خاضهـا قياصرتُهـا ضـدّ الإمبراطوريـة العثمانيـة والتـي سـاهمتْ بالتأكيـد فـي إيصـال الأخيـرة إلى الحالـة التي أطلق عليهـا الأوروبيـون فـي القـرن التاسـع عشـر تسـمية «الرجـل المريـض».

فـي جميـع الأحـوال فـإن السلسـلة الطويلـة من المعارك العثمانية الروسـية قـد لعبـتْ الـدورَ الأبـرز فـي إضعـاف وتقهقـر الإمبراطوريـة العثمانيـة حتـى قبْلَ ظهور دُوَل أوروبـا الغربية الحديثة التي لم تكنْ متحمسـة إلا جزئياً للقضاء

على امبراطورية الباب العالي مع أنها استثمرتْ ضعفها وسرّعتْ موضوعياً تفكُّكَها.

– 3 –

منذ التسعينيات من القرن الماضي أخذتْ ذاكرة هذا المسار الطويل تطفو جزئياً على سطح العلاقات الدولية دون أن تكون قد اختفتْ تماماً خلال الحرب الباردة. أصبح حينها من المحتمل أن التاريخ سيأخْذ وجهة جديدة بعد

انهيـار الاتحاد السـوفيتي من جهة ومع تراجع المدّ الكمالي فـي تركيا من جهة ثانيـة.

خصوصـاً أصبـح حينها مـن البديهي أن اسـتقلال جمهوريات آسـيا الوسطى والقوقـاز مـروراً بإشـكاليات البَلْقـان وأوروبـا الجنوبيـة لا سـيما مـع تفككّ يوغُسْـلافيا وحـرب البُوسْـنة ستشـكلُ مسـرحاً رمزيـاً لإعادة اسـتنفار الذاكرة المشـتركة.

– 4 –

ولكن استنفار هذه الذاكرة أخذ أبعاداً أكثر ثخونة مع روسيا بُوتِين وتركيا أَرْدُوغَان لأسباب متعددة متضافرة.

ففي الأفق الجيوستراتيجي تُمَثِّل بداهةً تركيا قطبَ تأثيرٍ مزدوج في العالم العربي وفي المناطق الناطقة باللغات التركية. من جهة «روسيا هي إحدى أبرز العقبات أمام طموحات تركيا في

امتلاك تأثير في الشرق الأوسط»[12].
ومن جهة ثانية تصطدم تركيا وروسيا كثيراً في المناطق الناطقة باللغات التركية أو المتداخلة معها. فالأخيرة كـ«إرث سوفيتي» تمثلُ بالنسبة لروسيا منطقة نفوذ حيوي مباشر بينما تمثّلُ في نفس الوقت بالنسبة لتركيا منطقة بالغة الحساسية لأسباب رمزية تاريخية معروفة ولأسباب ثقافية واجتماعية

---

12 ZARAKOL Ayşe, " Turkey, Russia, and the Arab Spring", *PONARS Eurasia Policy Memo*, No. 207, June 2012.

ملموسة ولكن أيضاً لأسباب اقتصادية راهنة لا سيما في القوقاز والحوض القزويني.

وتَعتبِر تركيا بشكل خاص أن روسيا قد عرقلتْ محاولتها للتطبيع مع أَرْمينْيا وأنها استغلَّتْ هذه المحاولة في إبعاد أَذْرَبيجان عن المجال التركي.

كما أن تركيا اصطدمتْ بتدخّل روسيا في جُورْجْيا في صيف 2008 فالأخيرة حليف استراتيجي لتركيا في عدد من المشاريع الطاقية كما أنها تمثل سوقاً مفتوحة للمنتوجات التركية.

– 5 –

ولكن مصالح تركيا في روسيا تجعلها كما هـو معـروف مضطرة إلـى كثير من التنازلات. فنصف الغاز الطبيعي المستورَد إلى تركيا هو غاز روسـي وكذلك نسـبة كبيرة من البترول (شكَّلتْ الأزمة السورية مثـلاً عنصـر عرقلـة لمشـاريع تركيـا في الحصـول علـى مصـادر طاقيـة بديلة). كما أن روسـيا تمثل أحد أهـم الفاعلين فـي مشـاريع الطاقـة النوويـة فـي تركيا وأحد أهم الأسـواق بالنسـبة للمنتجات التركيـة.

وقد حاولت تركيا تفادي العقبات الروسية عبر محاولة خلق فضاء تكاملي للتعاون بين روسيا وتركيا وجورجْيا وأَذْرَبيجان وأَرْمينْيا سمّتْه «منتدى القوقاز للتعاون والاستقرار». وفضلاً عن أن هذا المنتدى لم يرَ النور فإن إحدى نتائجه كان تعقيد علاقات تركيا مع حلفائها الغربيين.

– 6 –

ما الذي يعنيه هذا المسار الآن في واقعه التاريخي وفي استنفاره السردي؟ لذاكرة الصراع الثنائي في أي مكان عدةُ استعاداتٍ ممكنة وبالتالي عدةُ قراءات يمكن توزيعها إجرائياً إلى اثنتين:

ـ إحداهما هُوياتية ثُبُوتِيّة تُجوْهِر الصراع وتؤبّده. تجعل ماضيه مبرِّراً لمواصلته بين كيانَيْن محكوم عليهما أَزليّاً بالمواجهة.

ـ أمـا الثانيـة فحركيـة تاريخيـة تنظـر إلى الصراع الطويل في الماضي كإرث يمكن أن يؤسِّس لذاكرة مشتركة وأحياناً جامعـة فـي الحاضـر أو تُسـتنفر قصْدياً لتكـون جامعـة.

أين يمكن موقعةُ روسيا بوتِين وتركيا أَرْدوغان بيـن القراءتيْن خصوصـاً فيما يتعلـق باصطـدام الطرفين في سـوريا ؟ لِنوسـع قليـلا زاويـة النظر قبـل أن نعيد طرح السـؤال.

أوروآسيوية روسيا: من الغرب إلى تركيا والعكس[13]

13 نُشر في رأي اليوم، 5 ديسمبر، 2015.

– 1 –

شـهد يـومُ 23 سـبتمبر عـام 2015 تدشـينَ مسـجد موسـكو الكبير بحضور رسـمي (الرئيسـان الروسـي والتركـي وبعثات أخرى فلسـطينية وكازاخَسْتانِية إلـخ.).

أرادت السلطات الروسية أن يحملَ رسـائل محـدّدة. هكـذا أعيـد افتتـاحُ المسـجد الضخـم بعـد عشـر سـنوات من إعـادة البناء والتوسـيع التـي قامت

بهـا شـركة بنـاء تركيـة بتمويـل روسـي إسـلامي.

ورغم أن استطلاعات الرأي أظهرتْ حينهـا أن أغلـب الـروس ينظرون بعدم الارتياح إلى إعادة افتتاح مسجد موسكو الكبيـر فإن الغايـات السياسـية لحكومة بوتين جعلتْ الأخير يُصِرُّ على اسـتثمار الحَـدَث. فمثـلا اعتمـدتْ السـلطات الروسـية كثيـراً علـى تركيـا في تحسـين صورتها لدى مسـلمي روسـيا (الخمس وعشرين مليوناً) الذين ينتمي أغلبُهم إلى نسـيج الثقافـات واللغـات التركيـة.

بعد ذلك بخمسة أيام سرّبتْ السلطات الروسية معلومات ذات أبعاد رمزية بديهية عن اتفاقٍ روسي تركي حول الشروع في بناء «مسجد ضخم» في عاصمة شبه جزيرة القَرْم بتمويل وتنفيذ تركي.

ثم تسارعت الأحداث أكثر ولكن في اتجاه ومكان آخريْن. فيَوْمَان بعد هذا الإعلان (30 سبتمبر 2015) أجاز برلمان الفدرالية الروسية قراراً بالتدخل الواسع للجيش الروسي في سوريا.

– 2 –

مـن الـوارد جـدّاً أن أزمـة أُوكْرانيا وانضمـام القَـرْم إلى روسـيا مثلتْ أكبرَ حَدَث جيوستراتيجي في القارة الأوربية منذ انهيار جدار بِرْلِين. بمعنىً ما، مثَّلت الأزمـة الأوكرانية من وجهـة نظرٍ غربيةٍ نهايـةَ «نهايـةِ التاريـخ».

لنتذكّـر هنـا أن اسـم القَـرْم مأخـوذ حسـب الأَلْسُـنيّين مـن اللغـة التتاريـة التركيـة ومعناه: «جَبَلُنا». ولِشـبْهِ جزيرة القَـرْم كما هـو معـروف مكانـةٌ مركزية

في ذاكرة الصراع الروسي التركي. ولها مكانةٌ أيضاً في ذاكرة الصراع الروسي الغربي.

وقد كرّرتْ تركيا أنها لن تعترف بضَمِّ القَرْم إلى روسيا ولكنها ابتعدتْ، عكس حلفائها الغربيين، عن كل إجراءات أو لهجة تَصْعِيدية خلال الأزمة الأُكْرانية واكتفتْ، مثلاً بالنسبة لمسلمي القَرْم، بِدَعْم رمزي للمؤتمر العالمي للتتار. هذا بالرغم من أن مسلمي القَرْم ـ وأغلبهم تتار ـ يشعرون بتخوف كبير من انعكاسات ضَمِّ بلدهم إلى روسيا.

– 3 –

تنامتْ العلاقات التركية الروسية خلال العقدين الماضيين بشكل ملحوظ وأصبح التعاون الاقتصادي المتعدّد الأبعاد عنوانَها المركزي.

موازاة مع ذلك، اكتسبتْ تركيا منذ التسعينيات نفوذاً متزايداً في جزء من المناطق الناطقة باللغات التركية وبشكل أعمّ في القوقاز الجنوبي وهو بالتأكيد أمر حساس بالنسبة لروسيا. فهذه المناطق التي تُشكلُ أحد مفاتيح

الصـراع على التحكم في مصادر الطاقة في العالم هي أيضا المناطق التي تحاول الولايات المتحدة عبرها تطويق روسيا. وهـي أيضـا المناطـق التي نظـرتْ إليها روسيا خلال كل القرن العشرين كطوق نجاتهـا الطاقي والجيوسـتراتيجي. إنها بداهة إحـدى المناطق الجيوسـتراتيجية الْمَفْصَلية في العالم. طبعاً يوجد هنا أحد العناصر البارزة التـي تقف خلف أهمية تركيـا بالنسـبة للولايـات المتحـدة.

– 4 –

ندرك إذاً أن نفس العناصر التي تَدفع تركيا وروسيا إلى الصراع تدفعهما أيضاً إلى التقارب.

روسيا مثلاً نظرتْ بإيجابية إلى ابتعاد تركيا المتزايد نسبياً خلال العقد الأخير عن حلفائها الغربيين. ولكن هذا الابتعاد التركي عن الدول الغربية عَنَى عملياً إعادة تَموْقُع تركيا في العالم الإسلامي وخصوصاً، من جهة، في العالم العربي، و، من جهة ثانية، في

البلدان الناطقة باللغات التركية. وعَنَى تبعاً لذلك تأثيراً بمستوى أو آخر في عموم المناطق الإسلامية حول وداخل روسيا، من آسيا الوسطى إلى أوروبا الجنوبية، وهو أمر تنظر إليه روسيا بحذر كبير.

وفي نفس الوقت فإن ابتعاد تركيا عن الغرب يجعل روسيا تشعر بامتلاك أوراق ضغط أكبر على تركيا وهو ما ظهرَ مثلاً في ملفات العلاقات التركية مع بعض دول القوقاز. من هنا أيضاً اهتمام تركيا بتوسيع خياراتها الشراكيّة

خصوصاً في الميدان الطاقي. ويمثل العنصر الأخير طبعاً أحد العناصر التي تقف خلف اصطدام روسيا وتركيا في سوريا (مشاريع أنابيب الغاز الإيرانية والقَطَرية).

– 5 –

إبعاد تركيا عن روسيا أو روسيا عن تركيا، في حدود معينة، هو أمر بالغ الأهمية بالنسبة للولايات المتحدة. والملف السوري هو أحد الملفات

الْمُفَخَّخة في هذا المستوى. وأياً تكن الأسباب الفعلية لإسقاط تركيا لطائرة سوخوي الروسية في 24 نوفمبر 2015 فإن مثل هذه الأحداث، خصوصا إذا تكرّرتْ بصيغة أو أخرى، تمنح بمعنىً مُعَيَّن الولاياتِ المتحدة وحلفاءَها الغربيين ورقةَ ضغط مزدوجة.

كيف يمكن تفسير ما اعتُبر ـ ربما بتسّرع ـ رغبةً غريبة لروسيا خلال شهريْ أكتوبر ونوفمبر 2015 في «الاحتكاك» بتركيا واستعراض الأولى لعضلاتها العسكرية الجوية على حدود الثانية

رغـم أن كل المعطيـات الموضوعيـة تشـير إلـى حاجـة روسـيا الملحـة إلـى علاقاتهـا الاقتصاديـة والسياسـية مـع تركيـا ومصلحتهـا خصوصـاً فـي عـدم دفـع الأخيرة إلى البحث عن شـراكات بديلة أياً يكـن التنافس وأحياناً التناقض بيـن الدولتيـن؟

قبل أن نعود إلى هذا السؤال لِنُلاحِظْ أن الناتـو «يؤيـد» تركيـا كأحـد أعضائه فـي وجه روسـيا ولكنـه «تأييد» غامض الدلالة فـي الوقت الراهن. وإذا أضفنا الملـف الإسـرائيلي (روسـيا لأسـباب

معروفة حذرة إعلامياً بهذا الخصوص) وتوظيف الجميع لملف الطوائف الدينية والثقافية في المنطقة ندرك مردودَ حوادثِ جَسِّ النَبْض وحادثة إسقاط الطائرة الروسية بالنسبة للولايات المتحدة.

– 6 –

وفضلاً عن ذلك فإن الخطوات التنموية الكبيرة التي قطعتْها تركيا في السنوات الأخيرة ونتائجها الجيوستراتيجية

الممكنة هي أمر يزعج كثيراً المجموعاتِ الأيديولوجيـَة والمصلحيـة بما في ذلك داخـل بعـض أروقـة القرار فـي الدول الحليفـة لتركيـا.

وتُكررُ هـذه المجموعات باسـتمرار أنه يلزم الضغط لتعطيل المسار التنموي لتركيـا قبل وصولـه لـما سُـمي «مرحلة اللاعـودة». وهو مـا يجعل تركيا تسـير فـي المرحلة الحاليـة مُحاطـة بكثير من المخاطـر.

صحيح أن تركيـا عضو في الناتو منذ 1952 وعضو مؤسِّس في مجلس أوروبا

منذ تأسيسه سنة 1949، وصحيح كذلك أن سمعة بوتين بشكل عام سيئة في الدول الغربية والأوروبية باستثناءات معينة في أقصى اليمين وأقصى اليسار، ولكن أسباب عديدة تجعل أجزاء واسعة من الرأي العام المركزي في أوروبا والدول الغربية تشعر بسهولة بنوع من التعاطف مع روسيا حين يكون المستَهدف تركيا.

ما بعد الأحادية القطبية: من روسيا إلى الصين [14]

14 نُشر في رأي اليوم، 26 ديسمبر 2015.

- 1 -

منذ السنوات الأولى للأَلفية الحالية كما هو معروف بدأتْ الأُحادية القُطبية التي أعقبتْ الحربَ الباردة تتراجع. بدأتْ تدريجياً مرحلة التعدُّدية القُطبية. أما روسيا فقد شرعتْ في الخروج شيئاً فشيئاً من صدمة التسعينيات.

الدولة الكريملينية الْمُمَركَزة أخذتْ تطفُو على السطح. أخذتْ تستعيد بشكل خاص قبضتها على الشركات الاستراتيجية وعلى القطاعات الرئيسة

ولا سيما البترول والغاز الطبيعي. كما بدأت خططُ إعادة بناء الجيش الروسي.

– 2 –

تنبني العقيدة الروسية منذ عِقْد ونصف على اعتبار انهيار الاتحاد السوفيتي كارثةً كبرى. الاستراتيجية الروسية منذ بداية الأَلِفية مبنية على ثلاثة محاور مرتبطة:

ـ سياسة اقتصادية تستثمر من ناحية مصادرها الطبيعية الهائلة (النفط، الغاز الطبيعي إلخ.) وتحاول أن تسترجع قدراتها الصناعية عبر تطوير كفاءاتها العلمية والتقنية الواسعة.

ـ وسياسية إعادة تأهيل وتسليح ضخمة على الصعيد العسكري.

ـ ومركزية دَوْلَتية تأميمية على النمط العمودي الأحادي أو شبه الأحادي.

وكما هو معروف فإن مُنْتَقِدي هذا النمط «البوتينيّ» يعتبرونه ارتكاساً

نحـو النمـوذج البيروقراطـي السـوفيتي وحتـى القَيْصـري.

– 3 –

لا شـك أن هـذه النزعـة التأميميـة الدَّوْلَتيـة فـي روسـيا لا تخلـو بداهـةً مـن جوانـب أوتوقْراطيـة ومـن مركزية هَرَميـة حـادّة. وفـي جميـع الأحـوال فهـذه الاسـتراتيجية قد أظهـرتْ تحوّلاً فـي العلاقـات الدوليـة.

لقد اتّضحَ أن روسيا تُصِرُّ كلياً على إيقاف تمدُّد الاتحاد الأوربي وصَدِّ توسّع نفوذه والحدّ من انتشار نموذجه «الليبرالي» في البلدان المحيطة بها أي في الجمهوريات الموروثة عن الاتحاد السُّوفْيتي. وشرعتْ مع عدد من الشركاء الإقليميين (خماسي شانغْهاي ثم منظمة شانغْهاي للتعاون، الصيغةِ المطوَّرة لرابطة الدول المستقلة، الاتحاد الاقتصادي الأوروآسْيَوي وقَبْلَه المجموعة الاقتصادية الأوراسيّة إلخ.) والدُّوَليّين (مجموعة البريكس) في وضع ما تراه

هذه البلدانُ مشاريع مُنافِسةً للمشاريع الغربية الجيوستراتيجية.

هنالك في الخلاصة اصطدام روسي غربي متزايد. كانت العلامة الفارقة في هذا الأساس هي الأزمةَ الأُوكْرانية. معطيات كثيرة تكشف أن دول الاتحاد الأوربي والولايات المتحدة فوجئت في أوكرانيا بقدرات روسيا العسكرية والتطور الذي عرفتْه خلال ستّ سنوات أي منذ الأزمة الجيورجيّة سنة 2008.

– 4 –

طبعاً للتدّخل الروسي في سوريا والذي أخذ يتضاعف بشكل واسع منذ صيف 2014 أسباب عديدة معروفة. ولكن الصراع الروسي الغربي هو أحد أبرز هذه العناوين. روسيا تعتبر أن الدول الغربية وظَّفت الربيع العربي لطردها من آخر مناطق نفوذها في العالم العربي.

بشكل خاص تعتبِر روسيا أن «مُرونتها» سنة 2011 في الملف اللّيبي حيث

لم تستخدم الْفيتو لِمنعِ القرار 1973 (اكتفتْ في مجلس الأمن بالامتناع عن التصويت على هذا القرار) الذي مثَّلَ الغِطاء الدولي للتدخل الغربي في ليبيا لم تُقايَض إلا بما تراه شراسةً غربية لا حدود لها ضدّ المصالح الروسية. سوريا بهذا المعنى (موقعها الجغرافي، التقاطعات السياسية التي تمثل إلخ.) تختصر دلالات كثيرة عن المطامح الروسية المتصاعدة. وهي غالبا مطامح سوفيتية، وأحياناً قبل سوفيتية، تطفو من جديد شيئاً فشيئاً على السطح.

– 5 –

هـل يعني تطور الأوضاع في سـوريا أن المواجهة الروسية الغربية إن صحتِ التسـمية (وهي مواجهة قد تأخذ شـكل «التقـارب» الميداني) قـد بدأتْ تَخرج مـن أوروبا ومناطق أوراسْـيا إلى دائرة ثانيـة من دوائر صـراع النفوذ الموروثة هـي الأخـرى عـن الحقبـة السـوفيتية؟ هـذا علـى الأقـل مـا تذهـب إليـه الآن أغلـب التحاليـل. بعـض المؤسسـات البحثيـة فـي أوروبـا الشـمالية لا تتردّد فـي الحديث فـي تقاريرهـا عمّا تسـميه

الحرب الروسية الأمريكية بالوكالة في سوريا (مثلاً مركز الأبحاث حول العولمة في مونتريال أو معهد كاتُو في واشنطن). والأخير يتحدث عن حرب بالوكالة مجنونة من وجهة نظر المصالح الأمريكية. وهو ما لا تَخْفَى دلالتُه. ولكن ما تزال بداهةً بعضُ المعطيات والتحولات الجارية في هذا المستوى لم تَقُلْ كلمتها الأخيرة.

– 6 –

مـن المؤكـد على الأقـل أن الغربيين ينظرون بتخوف كبير إلى روسيا وطموحاتها. وعكساً للطبيعة الحذرة للصين مثلاً فإن السياسة الروسـية أظهرت أنها لا تتردد فـي التدخل العسـكري خارج حدودها المباشـرة. كما أن روسـيا أثبتـتْ عمْداً للـدول الغربيـة أنهـا لا تشـعر بنفـس التخوفـات الموجـودة لدى الأخيرة أو لدى صناع قرار الأخيرة (طبيعة سـلالم اتخـاذ القرار، التخـوف من المحاسـبة إلخ). هل يعني ذلك أن روسـيا قد بَنَتْ

لنفسها صورة سياسية وعسكرية رادعة أم أنها فقط وضعتْ نفسها بتسرّع في مرمى الاستهداف الغربي؟

– 7 –

لنتذكر أنه بالرغم من أن العلاقات الروسية الصينية ظلت في تصاعُد وتوسّع خلال العقدين الأخيرين وأنه أُرِيدَ لها، عَبْرَ ما سمي بـ«السلام الساخن»، كقطيعة مع «العلاقات الباردة» خلال الحرب الباردة (المشاريع الطاقية الضخمة،

استيراد الجيش الصيني وهو ثاني أكبر جيش في العالم لثلث سلاحه من روسيا إلخ، أن تكون استراتيجية) فإنه من العسير الحسْم الآن في صلابتها في الأمَد المتوسط.

معطيات التاريخ الحديث تثبتُ إمكانية حدوث هزات ما في التحالف الصيني الروسي (تصنيع السلاح والتنافس العسكري والاقتصادي لا سيما في منطقة النفوذ المشترك في آسيا الوسطى إلخ.) وهو على الأقلّ ما تراهن عليه

تيارات نافذة في الولايات المتحدة وحلفائها.

لِنُضِفْ هنا في المقابل أن العلاقات الاقتصادية الأمريكية الصينية ظلتْ أيضاً في تصاعد وتوسع وما تزال. ولكن استمراريتها على الأمد المتوسط بنفس الإيقاع أمر يمكن التشكيك فيه. فحين تصل السوق الصينية إلى مستوى متقدم من الاستقلال الذاتي ـ ربما في أقل من عقد ـ أي حين تتراجعُ الأهمية الاستراتيجية للسوق الأمريكية والأوروبية بالنسبة للصين فإن باب احتمالات غير

قليلـة سـيُفتح. وهـو بالتعبيـر الخَلْدوني «أمـر لـه مـا بعـده».